

الفصل الخامس

كتابة الرسائل

— ٢ —

من ابن طولون إلى الفاطميين

رأينا فيما سبق أن الرسائل كانت ضعيفة في مصر ، ولم يؤثر منها بعد زمن عمرو إلا النادر ، الذي أفلت ، فلحق بما بقي من رسائل الشام والعراق . ولم يكن مركز مصر في الدولة الإسلامية ليهي لها ظهور الكتاب فيها ، أو إقبالهم عليها بسبب تبعية دار الخلافة ، وانصراف الكتاب وغيرهم من أهل الأدب إلى حاضرة الدولة ، حيث العطاء الجزيل ، والمناصب الرفيعة ، والشهرة الواسعة ، والحظ الباسم لمن سعدوا بقرب الخلفاء والوزراء .

وما كان لهؤلاء الكتاب — في عهد العباسيين خاصة — أن يتركوا بغداد حاضرة الدنيا ، ومعين الخير ، وجنة النعيم ؛ والتي لم تكن توزن بها حاضرة أخرى في الدولة ، ولا برجالها رجال في نواحي المملكة ، وكانت دواوين الإنشاء فيها موئل كل مجيد من الكتاب ، ومدرسة كل طامح من الناشئين .

ديوان الإنشاء :

فلما حاول ابن طولون الاستقلال عن بغداد رأى أن يجعل استقلاله كاملاً : فكون جيشاً ، وبني حاضرة ، واستخدم كتاباً ، وأنشأ ديواناً للإنشاء .

ويقول المؤرخون إنه كان أول ديوان للإنشاء^(١) بمصر . وروى صبح الأعشى^(٢) أنه كان لديوان الإنشاء بالديار المصرية خمس حالات — يعيننا منها الأولى والثانية — .

الحالة الأولى : ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة الطولونية ، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحداً بعد واحد ، فلم يكن لهم عناية بديوان الإنشاء ولا صرف همّة إليه ، للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة ، والنزول اليسير من الولايات ، ونحو ذلك ؛ ولذلك لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب ، ولا يتناقل بالأسنة .

ويقول أيضاً عن هذه المدة التي سبقت ابن طولون^(٣) : إنه لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية ؛ تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة .

الحالة الثانية : ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية من ابتداء ولاية أحمد ابن طولون واستفحال ملك الديار المصرية في الإسلام ، وترتيب أمرها إلى انقراض الدولة الإخشيدية ، وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها وانتظم أمر المكاتبات^(٤) .

ويقول صبح الأعشى^(٥) أيضاً إن ابن طولون أول من أخذ في ترتيب الملك

(١) لعله كان في ولاية مصر من تشبه بالخلافة فجعل لرسائله كتاباً ولكن ذلك كان نادراً : روى ابن النديم في الفهرست ص ١١٣ أن جابر بن داود البلاذري — جد المؤرخ — كان يكتب للخليفة بن عبد الحميد عامل الرشيد على مصر وممدوح أبي نواس . وفي خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٢٦ أنه كان للولاة كتاب ينشئون عنهم الرسائل إلى الخليفة وغيره .

(٢) ج ١١ ص ٢٨

(٣) ج ١ ص ٩٥

(٤) ج ١١ ص ٢٩

(٥) ج ١ ص ٩٥

وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ؛ ولما شتمخ سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات .

فضل ابن طولون على الكتابة :

وكان لابن طولون فضل في إقامة دعائم الكتابة لحاجته إليها في حكم البلاد وكانت الضرورة تقضي في أثناء ولايته الطويلة (٢٥٤ — ٢٧٠) أن يكون دائم المكاتبات ، لما كان يشغله من أمر الخلافة ، وأمر الثغور ، والبلاد التي كانت يسيطر عليها ، وما كان يجد في مصر من فتن وأحداث تستدعي الكاتب الماهر ذا الرأي السديد والقول النافذ . فاختار لكتابته قومًا عرفوا بالبلاغة كما عرف هو بالأدب وحسن التوجيه والإرشاد .

روى أنه أراد أن يكتب رسالة فاستدعى ابن عبدكان كاتبه وألقى إليه بالمعنى الذي يريده . قال ابن عبدكان في حق هذه الرسالة : فوالله العظيم ما حضرني لهذا الكتاب أحسن من معاني ألفاظه كلها ، فلم أتجاوزها . وأنفذ الكتاب وأعمل به^(١) .

وكان اختياره لابن عبدكان دليلًا على حسن الاختيار ، قال صبح الأعشى فيه^(٢) : « فاستكتب ابن عبدكان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره » .

وقد عرف عنه تدقيقه في الرسائل التي تصدر عن ديوانه . فلم يكن كتابه يختمون كتابًا ولا يحررون نسخة حتى يعرضوه عليه ، فإن استصابه أمضاه وإلا غيره .

(١) سيرة ابن طولون للبلوي ص ١١٠

(٢) ج ١١ ص ٢٩

ديوان التصفح :

وكان لما استكتب في خرجته إلى الشام أبا الضحاك محبوب بن رجاء ، ولم يكن بالكامل ، إلا أنه كان حاضر الذهن حلو الألفاظ ، فمرض عليه يوماً كتاباً فلم يقل فيه شيئاً ، فأنفذه محبوب فسأل عنه أحمد بن طولون بعد أيام ، فقال له : قد أنفذه . فحرد عليه واغتاط ، وقال له : ويلك ! حق الكتب أن تراجع فيها الأفكار ، وقد كان ينبغي أن تؤخر إنفاذه وتراجعني فيه . فكانت كتبه بعد ذلك تؤخر لمراجعة النظر والتصفح بعد الإنشاء ، وجعل لها ديواناً سماه ديوان التصفح ^(١) .

وكان حريصاً على مراجعة الكتب والزيادة عليها بما يريد أن يُيسره عن كتابه . وحدث عنه ابن عبد كان في ذلك قال : « كنا ننشئ الكتب إلى السلطان وغيره من أصحاب أعماله فيرد في الأجوبة غير ما صدرت به الكتب إليهم ، فذكرت له ذلك لما كثر ، فضحك وقال : هذه أجوبة عن أشياء أضمنها أنا الكتب لا أطلعكم عليها ^(٢) » .

ومثل هذا الأديب المدقق يحمل كتابه على حسن الاختيار ، وتهذيب الكتابة والحرص في التعبير ، وحمل النفس على الإجابة ، وسلامة التفكير ؛ لينالوا ثقتهم وبسملوا من أذاه .

تفضيله المصريين في الكتابة :

وكان له رأى شديد في تفضيل المصريين على العراقيين . فإنه كان — مع إيمانه بتفوق العراقيين في الكتابة — يفضل استخدام كتاب مصريين : نقل عنه أنه

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ١١٢

لما وجهه بالواسطة إلى العراق واستكتب جعفر بن عبد الغفار ، اضطرب بما حمله من الأمر ، ولم يكمل له ، فقال له حمدان بن خاقان : الأمير أيده الله يحتاج إلى كاتب أوفى وزناً من هذا الكاتب ، فقال له : أنا أحتمله وأقنع به لأنه مصرى . فقال له حمدان ، وكأنه عجب من قناعته بكاتب مصرى لا يغنى غناء العراقى : والأمير أيده الله يرى أن الكاتب المصرى أكتب من العراقى وأنهض بما يتولاه ؟ قال له : اعلم أن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، فإنه يجمع بذلك أشياء تحمد عاقبتها ، منها أن عيال الكاتب وشمله وكل ما يملكه معه في بلده ، ومنها أن جميع ما يكسبه فيه ، وإن كان ممن يرغب في تجارة كانت تجارته فيه ، أو في شراء عقار أو بناء كان فيه . ثم يقول : والكاتب الغريب ليس كذلك لأنه يمتدح المستغلات في البلد النائي عنى ، وكده عمارة بلده بتخريب بلدى ، وهو كذلك في كل حال ، متطلع إلى بلده . . . فهذا الذى زهدنى في كتاب العراق ، مع علمى بما فيهم من الصناعة وتقدمهم في الكتابة .
فقال له : قد أصاب الأمير الرأى وفقه الله^(١) .

وأرى أنه كان يريد تدريب المصريين على خدمته ، والقيام بأمر دولته ، ليستغنى بهم عن العراق ورجاله الذين لا يرون له فضلاً عليهم ، لأنه كان بالأمس واحداً منهم . وربما دعا ذلك أدباء البلاد إلى الثقة بأنفسهم ، والنهوض بأدبهم ، واستكمال ما ينقصهم ، ليرتقوا إلى المنزلة التى أراد أن يرفعهم إليها ، ويكونوا أهلاً لمساواة كتاب العراق ، وشغل مراكمهم ، والحلول محلهم .

وترى كاتب الأمير أصبح رجل دولة ، يعتمد عليه في المراسلات السياسية ويوكل إليه تدبير بعض شئون الدولة ، ويستشار قبل الإقدام على عظيما الأمور .

واليك القصة التالية :

كان ابن طولون يود أن يختطف الخليفة من بغداد ، وينقل كرسى الخلافة إلى

مصر ليعبدها عن تأثير الموفق وسلطانه ، فحدث أحمد بن محمد الواسطي في ذلك فقال له : ما تبلغ معرفتي وفهمي الكلام في هذا الباب ، ولكن في محبتك من إن أحضرته واستشترته أشار — لفهمه ورجحان عقله — عليك بالصواب . فقال : ومن هو هذا ؟ فأجابه : محمد بن اسماعيل بن عمار . فقال له : صدقت ؛ إنه كذلك ، ولولا نفورى منه ، لخوفى من غوائله ودهائه ، لما كان بحيث هو ، وكان ممي في أجل حال ، فأحضرني . فأدخل عليه بهيئة السجن وملابسه ، وعليه قميص غليظ ، وقد اسود من طول دخان السراج . وشعره قد طال ، حتى سقط على وجهه لكثته في المطبق ، فاستدناه فدنا ، ثم استدناه ثانية ، فدنا وقال : ما أرضى رأيي للأمر أيده الله .

فقال له : دعوتك لأستشيرك في أمر أردت أن أفعله ، لعلني بجودة رأيك ، وصحة فهمك . فقال له : أين الرأي مني اليوم أيها الأمير ، وهذه حالي ؟ فقال له : أنت أوفى رأياً ، وأذكى قلباً ، من أن يحتل عليك ما التمسته منك ، أو يعتريك ما يعترى ذوى النقص . فقال : يقول الأمير أيده الله ما شاء ، والله جل اسمه الموفق فقال له . إن أبا أحمد الموفق قد احتوى على أخيه أمير المؤمنين المعتمد بالله ، ونفذ أمره في كل ما يريد ، وتمكن من إعنائه بمن ضم إليه أمير المؤمنين من الرجال والجيش الذي استدعاه منه لقتال البصري . فلما حصل ذلك له صارت له عدة على أمير المؤمنين ، وقد خفت حنثي في يميني التي له في عنقي إن قعدت عنه ، وقد عزمت على الخروج إليه بنفسى وجميع جيشي ، حتى أنصر دعوته ، وأنقله إلى ، فما ترى ؟ .

فقال : « إن من الخطر العظيم أولاً خروج الأمير بنفسه وجميع جيشه وعده لأن الحرب سجال ، والظفر بحسب التوفيق ، فأخاف أن يلحق الأمير — وأعيذه بالله — هزيمة ، فلا تكون له بعدها قائمة . ولأن يكون الأمير ، أيده الله ، من

وراء من يبعث به إلى هذا الوجه ، وهو مادة له ، أولى من أن ينفذ بنفسه ، وبعد هذا فأرى كلام الأمير كلام من قد لهج من نصرة المعتمد ، وما يريد من رد أمره إليه ، مما لا يراه له المعتمد ، ولا يعتبر به له ، لأنه رجل مشغول بلمهوه ، منهمك في لذاته ، بمغزل عن حسن تدبير ، وأن يكافى على فعل جميل .

« أرايت أيها الأمير لو انتقل إليك ، وتمت للأمير حمايته من أخيه ، وأجابك إلى ما دعوته إليه ، أكان له في قصرك دار يسكنها غير دارك ؟ فأول ما يستعجل الأمير أن ينتقل عن هذه الدار إلى ما لا يقاربها ولا يدانيها ، بل تضيق بمن يحوطه بل لا تسع بعضهم ، ثم يكون الأمير إذا دخلها كبعض الزوار .

« ثم أنت أيها الأمير الآن المتبوع الآمر ، فلا تلبث أن تصير التابع للأمور ، ولعله أن يكون عنده أثر الناس مُفَنِّن أو مُمْلِه أو نديم ، لا يَفُشِّر غلام الأمير وليس له منه منفعة في أمر ، ولا يحمل عنه شيئاً من ثقل ، ولا يزيد على أن يلهمه ، ويسهل موارد أموره ومصادرها عليه .

« وأقل ما في هذا الباب الثاني أنه إذا دخل الأمير للسلام يكون قائماً ، وذلك النديم أو الملهي جالسا ، لموضعه منه ، ومنبسطا إليه . ولعل هذا إذا شاهدته الأمير أخرجته إلى أكثر مما خرج إليه أخوه الموفق فيه ، ثم لا يأمن الأمير أن يسأله بعض غلمانه في ضيعة من ضياعه ، أو عمل فيه أخص غلمان الأمير ، فلا تمكنه مخالفته في كل ما يستدعى منه ، ثم اعتراضات حاشيته في البلد وأصحابه ، وكذلك في الأعمال ، وطلبهم ما يشق على الأمير ويعظم ، فلا يتهيأ له منعهم ، فإن منع أغضب أمير المؤمنين ، ثم الأمير بعد هذا غير آمن من أن تحمله المحافظة لمن يسأله استنزالك عن موضعك ، فيجيبه ليكافته على حال قد تقدمت له عنده إلى محبته ، ولا يخالف إرادته .

« وحسبك أيها الأمير ، أن تستدعى رجلاً إلى بلدك وملكك فإذا بلغته الناية القصوى ، وسوغته كل ما كدحت فيه دهرك ، رأى أن ذلك

كله له ومن حاله ، وأن الذي قد بقى معك مما تتجمل به بين يديه ، له دونك ،
وأن إبقاءه لك تفضل عليك » .

« إن من إقبال الأمير ما يلحق المعتمد من أخيه ، لأنه يجد بذلك الحجة على
خلافه ، وترك الانتهاز له ، وإسقاط اسمه والدعوة له ، وتأليب الأولياء عليه ، وفي
هذا ما يتهيأ له بلوغه من معونة أمير المؤمنين ، وما يثني أخاه عليه فيعود له إلى
إرادته ، ويحول عنه ما يكرهه ، وما أحب أيها الأمير إظهار هذا الاجتهاد العظيم
في قهر الموفق ، ونصرته لأخيه عليه ، لما يتخوف من مثله ، تقوية يده وكبر
أمره وتمكنه .

والذي أرى — ولراى الأمير ، أيدى الله فضله — ألا يفعل ما إذا فعله جرى
الأمر فيه بينه وبين أمير المؤمنين على ما شرحته له ، مما يخرج الأمير معه إلى
أكثر مما خرج أخوه إليه » .

فقال له أحمد بن طولون : حسبك حسبك ، وأمر برده إلى محبسه .

قال أحمد بن محمد الواسطى لأحمد بن طولون : أيها الأمير أكان جزاء هذا
الرجل على هذا الراى السديد الصحيح ، الذى قال فيه الحق ، ومحض النصيحة ،
أن يرد إلى محبسه ؟

قال : نعم ، إنى تأملت أمره ، فوجدته قد نصحنى فى دنيائى ، وغشنى فى دينى
وآخرتى ، ثم تأملت رأيه وجودته وصحته ، وما حضره منه بغير فكر ولا استعداد
وهو على هذه الحال الصعبة القبيحة الفنية للحس ، فضلاً عن غيره ، فكيف لورأى
نفسه مطلقة ، وهو نافذ الأمر والنهى ، يأكل طيباً ، ويلبس لبناً ، ويشم عطراً ،
إذا لاستد رأيه ، ولبئد غوره ، وتمكن من عدوه ، بقوة حيلته وعزم رأيه .

إن أجهل الأمراء من أعطي مقادته الكتاب العقلاء ، لأنهم أسد الناس رأياً ، وأقلهم

دينياً ؛ بل يقبل رأيهم من غير أن يظهر لهم فيه استصابة ^(١) !

هذه النصيحة التي تفيض بالإخلاص للأمير ، والرغبة في تثبيت ملكه ، ودوام العز والسيادة له في بلده ، لم تلق من الشكر ما تستحقه ، ولم يعامل صاحبها بما هو أهل له ، بل فكر الأمير تفكيراً غريباً ، واتخذ من سداد رأي الكاتب وحسن نصيحته ، وتوفيقه في مشورته وهو في هذه الشدة والضيق ، سبباً للخوف منه ، فأبى أن يتركه حراً طليقاً ، وأتهمه في نصيحته ؛ وحذر من الكتاب جميعاً .

وهذه القصة تؤيد أيضاً ما تقدم من أن الكاتب لم يكن ناسخاً ، بل كان مستشاراً في مهام الأمور ، يحتاج إلى ثقافة واسعة ، وعقل ناضج ، وبديهة حاضرة ، وتدبير محمود ، وبصيرة نافذة ؛ مع الصفات الأدبية كالعلم بالأخبار ، ورواية الأشعار ، وحسن الاستشهاد والاقتباس ، وقوة الحججة والبرهان ، وغير ذلك من صفات البيان .

معاداته للأدباء :

اتهم ابن طولون بمعاداته للأدباء ، وعدم تشجيعه للأدب المحض بالرغم من أنه كان أديباً . وقد جاء في مقدمة « سيرة ابن طولون » للبلوى ^(٢) أنه كان يُفضل على النساك والقراء والفقهاء والمحدثين والتطبيين والمهندسين ، يجري عليهم ما يكفيهم . ولا يعني كثيراً بالنجمين والشعراء على ما يظهر ، لبعده عن الاعتقاد بتأثيرات النجوم على أهل الأرض ، ولاتهم كثيراً مصانعات الشعراء . وقد مدحه البحترى ثم هجاه ، وتوفر محمد بن داود على هجوه عند كل سائحة .

وقد يفهم من سجنه لمحبوب بن رجاء وفعله بالكاتب ابن عمار ، ورأيه في الكتاب جميعاً — وهو الرأي المدون في آخر قصة ابن عمار — أنه كان مجافياً

(١) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٨١ — ص ٢٨٥

(٢) ص ٢٤

للأدباء ، شديداً على الكتاب ؛ يحذرهم ، ويسئ الظن بالعقلاء الأذكىاء منهم .
ولكن هذه حالات فردية ؛ فقد مدحه البحترى طمعاً في عطائه ، ثم هجاء
لما حرمه ، وكان سخطه على محبوب بن رجاء بسبب إفشاء محبوب لأسرار العمل
الذى أوتمن عليه ، إذ كان ينقل إلى العباس بن أحمد بن طولون التقارير التى كانت
تأتى عنه إلى أبيه^(١) ، أما سر غضبه على ابن عمار فجهول ، وقد تركه فى الحبس
حتى مات .

لكن بقية أحواله تدل على أنه كان يقدر الأدب الراقى ، والبديهة الحاضرة ،
وحسن الجواب ، وسديد الرأى . وكان يعجبه فصاحة اللسان ، وجمال العبارة ،
مع جميل العذر ، شأنه فى ذلك شأن كل عاقل ، مهذب الذوق . واقرأ القصة الآتية :
أنقذته فصاحته من ابن طولون :

حدث نسيم قال : خرج مولاي ليلة إلى قبة الهواء ، فسمع فى أطراف المعافر
كلباً ينبج ، فراه ذلك ؛ فقال للغللمان وهم قيام بين يديه : اركبوا الساعة ، وامضوا
ركضاً نحو هذا الكلب ، فانظروا على أى شئ يصيح ، فإن وجدتم أحداً
فجيئوني به .

فمضى الغللمان نحو صوت الكلب حتى أدركوه ، فوجدوا رجلاً قد كان عند
صديق له من جيرانه ، وقد انصرف من عنده يريد منزله ، فوجد بابه مغلقاً ، وهو
قائم عليه يدق ، وقد منع أهله غلبة النوم عن أن يسمعوا دقه . وكلما دق الرجل
ينبج الكلب عليه ، فأخذوه ، وأردفه أحدهم خلفه ، وأقبلوا به ركضاً ، فلما رأى
الرجل ما حل به طار التبيذ من رأسه ، وأقبل يستعين بالله ، فلما أوقفوه بين يديه
كاد عقله يذهب ، حتى ثبته الله عز وجل ، فعرفه الغلمان صورة الأمر ، فقال له

أحمد بن طولون : ما الذى حملك على الخروج فى مثل هذا الوقت ؟ فقال له : أنا أحدث عنه الأمير أيده الله : كنت عند صديق لى من جيرتى ، وتمادى بنا الحديث إلى هذا الوقت ، وكنا نستعمل الحذر والتحفظ قبل أيام الأمير ، أيده الله ؛ فلما ولينا ، واشتدت وطأته على أهل الدعارة والفساد انقمعوا^(١) من هيئته ، وخافوا من سطوته ، فأمننا لذلك وصرنا نخرج فى مثل هذا الوقت ، وقبله وبعده آمنين ، ببركة الأمير أيده الله .

فاستحيا منه أحمد بن طولون لحسن عبارته وبيان قوله ، وتوقف عما كان قد عزم عليه من التأديب له فى الخروج فى مثل هذا الوقت . وقال له : قد كنا على تأديبك على مخاطرتك بنفسك فى مثل هذا الوقت ، فأزال ذلك عنا جميل عذرِكَ ، وحسن عبارتك عن نفسك ، وفصاحة لسانك ، وعلمنا أن ذلك لا يكون إلا فى عاقل ، وكفى بالعقل واعظاً . وقد جعلت العِوَاضَ من ذلك سرعة ردك إلى منزلك ، فلست أشك بأن أهلك لما علموا بأخذنا لك قد قلقوا لذلك . ثم قال لبعض الغلمان : أردفه خلفك ورده إلى منزله ، وقام هو فأخذ مضجعه وقد مضى أكثر الليل .

أعراية أبت أن يكون ابنها جاسوسا :

وهذه قصة أخرى تدل على ميله إلى مجالس الفصحاء ، وإعجابه بحسن قولهم تفسيراً لوجهة نظرهم :

دخلت أم عقبة الأعراية يوماً إلى أحمد بن طولون ومعهما ابنها عقبة ، وكان

(١) قعه : ضربه باللمعة وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ، والجمع مقامع وقعه كمنعه ضربه بها وقهره ، وذلك ، كاقعه ، وانقمعوا ذلوا وقهروا.

كثيراً ما يأنس بها ويحب محادثتها لفصاحتها ، وحسن كلامها ، وكان يكثر برها في كل وقت ، فسألته التقدم في تصريف ابنها فيما يعود عليه نفعه ، فقال لابن مهاجر وهو بين يديه : انظر له في شغل يعود عليه فيه خير بين عليه ، وكان البريد إليه ، فقلده ابن مهاجر بريد ناحية من النواحي ، وأجرى عليه من الرزق عشرة دنانير في كل شهر ، فحدث ابن مهاجر قال : إني لقاعد بين يدي أحمد بن طولون بعد ثلاث ، حتى دخلت أم عقبة على الأمير فقالت : أنا شاكرة للأمير أيده الله ، ذامة لهذا الرجل ، تريدني ، فقال لها : ولم ذاك ؟ فقالت : أمرته في إشغال ولدي فيما يعود عليه نفعه فشغله فيما لا يُرْحَضُ عن رءوسنا عاره وشناره ، والجوع الكريم أنفع من الشبع اللثيم ، فقال لها : وما ذاك ؟ قالت : وكله بالنيمة يخصيها على المسترسل ، ويهتك بها المستتر ، فقد تحاماه الناس وتناذروه ؛ فإذا لم يكن غير هذا تركته ، ولم أتعرض لما فيه مقت الله عز وجل وسب عباده . فضحك أحمد بن طولون ، وأمرني أن أجرى العشرة دنانير في كل شهر ، وأعفيه من البريد ففعلت ، فشكرت ودعت وقالت : هذا الأشبه بك أيها الأمير وانصرفت^(١) .

وورد في كتاب ابن الداية قبل هذه القصة ما يأتي : وحدثني نسيم قال : تظلمت عجوز أعراية تعرف بأُم عَقِيل ، إلى أحمد بن طولون من تسخير أجمال لها ، وكانت فصيحة اللسان ، حسنة البيان ، فتقدم برد أجمالها وأمر بعض الحجاب أن يلحقه بها إلى داره ، فوافقت ، فتقدم في إطعامها ، وأن يخلع عليها أثواب ضخام . وكان في دولة ابن طولون فصحاء ينهضون بعبء الوفاة ، ويحسنون تحمل الرسالة ، ويزينون أقوالهم بوضوح برهانهم ، ويفتنون سامعهم بعذب كلامهم ، ويرهبون عدوهم بقوة بيانهم . وكان يتخيرهم ، ويستعين بهم في مهمات أموره ، وإليك خبر وقادة من هذه الوفادات .

ثار العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وأعانه على ذلك طائفة من قواد أبيه وكتابه . فمن القواد على بن ماجور ، وعبد الله بن طغيا ، وأحمد بن صالح الرشيدي وأحمد بن القاسم بن أسلم ، وجعفر بن حذار الكاتب ، وكل هؤلاء كان لأحمد بن طولون عنده النعمة الجزيلة ، والإحسان التام ، والأشياء الخطيرة ، إلا أن الحاسد لا دواء له ، ولا يقنعه إلا أن يأتي على نفس من يحسده^(١) .

ومنهم طائفة أخرى مذهبهم النحر والغريب ، وعلم النجوم ، والشعر وما يجري مجراه . وانضاف إليهم جعفر بن عبد الله ، وأحمد بن المؤمل المعروف بأبي معشر ، ومحمد بن أزهر المعروف بالمتوف . وكل هؤلاء حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطي . فسار إلى إفريقية ، وعاد أبوه من الشام فأرسل إليه وفداً على رأسه القاضي بكار بن قتيبة^(٢) وفيهم زياد المعدني مولى أشهب . وكان فصيح اللسان ، حسن العبارة ، قوى الفهم ، وأمرهم بملايئنته وملاطفته ووعده في كتابه الصفح عما جناه ، وألا يسوءه بمكروه ، وحلف له على ذلك بأيمان ، مغلفة .

فلما وصلوا إليه رحب بهم ، وأكرمهم ، ورفع مجلسهم . فابتدأ زياد المعدني فقال : يا سيدي . سيدنا الأمير أيده الله ، يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : يا أقرب الناس إليّ ، وأبرهم لديّ ، وأعزهم عليّ ، خفرت ظني بك أقوى ما كان أمل فيك ، وأرجى ما كنت لك . عن غير إساءة كانت مني إليك ، ولا خطيئة ركبها فيك . ولم نرُع حسن تربيتي لك ، وأعظم إشفاق عليك . وأنا رشحتك لمنزلي . وقدرت بك حياة ذكري ، وصيانة شملتي ؛ فأرضيت عدوي ، وأسخطت وليي . أيا سبحان الله ! أما تخاف العقوبة في العقوق — وقانيها الله جل اسمه

(١) س ٢٤٥ سيرة ابن طولون .

(٢) ص ٢٤٩ سيرة ابن طولون .

فبك ؛ وثمرة المجازاة على الإساءة — صرفها الله بكرمه عنك ؛ فإن رجعت إلى .
فكأنك لم تذنّب . وإن تبادى بك الاغترار شخصت إليك بنفسى . ولم أكن
بأول من خسر سعيه . وأخلف تقديره « . وبكى زياد وبكى معه من حضر ؛ فتدمع
العباس وبلغ قوله من قلبه .

ولكن ابن حدار حذره أباه ، وخوفه ما قد يصيبهم جميعاً . وكان أبوه قد
كتب إليه كتاباً مع الوفد يستلينه ويعدّه . ولكن ابن حدار أنشأ للعباس
كتاباً يرد به على أبيه . وفيه شرائط بحجفة . واستمرت بينها المكاتبات طويلاً .
وكان مما أفاظ أحمد بن طولون من مكاتبات ابنه العباس إليه حتى استخفه
إلى الخروج بنفسه ؛ قوله في كتابه ، من إنشاء جعفر بن حدار^(١) :

إلى الأمير أبي العباس أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين ، من عبد الله
مولى الله ، التمسك بمناجى طاعة الله ، التحرف عن زيغ ظلم المعصية ، إلى وضوح
سر البصيرة ، القابل من الله موعظته ، والعامل بما أمر به . إذ يقول جل ثناؤه .
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » . وقوله عز وجل : « فلا
تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » .

سلام على الأمير ، وعلى من استرجع وادّكر ، وفكر وازدجر . فانا أحمد
إلى الأمير الله لا إله إلا هو ، العاطف بى إلى أرفع سنن الهداية ، والعاذل بى عن
ظلم سنن الجهالة ، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليه ، وخيرته من صفوته ،
ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، وفق الله الأمير لحال رشده ، وجنبه مقابح أمره ، وسخر له الخلق
عن غامض ذكره ، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائذ منه ، عن سبيل العظة
والتذكير ، إلى سبيل التهديد والتحذير ، فيبعد وقرب ، وآنس وهدد ، وجمع

وفرَّع . يئذل من نفسه باليسير فيها . ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها . ويعرض من ماله الأنفس . ويصير من خطابه الأثر ، ويمدد من واجب حقه ، ولازم مفترضه ، . ما اعترف به مصداقاً ، لمن اعترف بالطاعة محققاً . . الخ » .
وأخذ يجادل أباه في تبرير خروجه عليه بأسلوب أفصح . وبحجج قوية من المعقول والمنقول ؛ ويرد على ما جاء في كتاب أبيه مفنداً ومعتزلاً ، حتى لتخاله من إنشاء كتاب العراق^(١) .

فلما ورد كتابه أغاظه ، وبلغ منه ، وأجاب به يقول :
« إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، المُنْتَمِ لدينه ، البخوس من حظ دنياه وآخرته : سلامٌ على كل منيب ، مستجيب من قريب .

أما بعد : فإن مثلك مثل البقرة ، تثير المديّة بقرنها ، والنملة ، يكون حتفها في جناحها ، وستعلم — هَبِلَتْكَ الهوابل ، أيها الأخرق الجاهل ، الذي نثني عن الحق عطفه ، واغتر بضجيج الموابك خلفه — أيّ مورد هلكة سلكت ، إذ على الله ، جل اسمه تمرت ، فإنه تعالى قد ضرب لك (مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وأعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه قد أحاط بك ، والعساكر قد أتتك كالسيل في الليل ، تؤذّنك بحرب وويل ، فإني لأقسم ، وأرجو ألا أجور وأظلم ، ألا أنثي عنك عناناً ، ولا أؤثر على شأنك شأننا ، فلا تَتَوَقَّلْ^(٢) ذروة ، أو تَلِجْ بطن واد ، إلا تبعتك وطلبتك ، حيث يمت

(١) رد أبوه عليه كتاباً مطولاً شديداً نقله صبح الأعشى بتمامه ج ٧ ص ٥
ويقول القلقشندي : إن الكتاب من إنشاء ابن عبد كان . ولا يقل في قوته الأدبية والنطقية مما تقدم . وهنا صورته عن « سيرة ابن طولون » للبلوي ص ٢٦٠ وهي أقصر من رواية صبح الأعشى ، وتخالفها بعض المخالفة .
(٢) تصدقة .

وسلكت ؛ حتى تستمر من عيشك ما استحليت ، وتستدفع من البلاء ما استدعيت ، حتى لا دافع ، بمون الله ، يدفع عنك ، فتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هلكت ، ولم تأت بما إليه عجلت ، ولا رأى من أطاف بك من النواة قبلت . فحينئذ يتفري^(١) لك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن نصحه ، فتتظر بعين لا غشاوة عليها ، وتسمع بأذن لا وقر فيها ، وتعلم أنك كفت مستمسكا بجبل غرور متهدبا ، وسالكا سبيل ضلال لا تجد له هاديا ، من عقوق لا ينال طالبه ، وبنى لا يفوت هاربه ، وتقف على سوء رويتك ، وعظيم جريرتك ، في تركك قبول الأمان وهو لك مبذول ، وأنت عليه محمود ، واليد عنك كافة والسيف عنك مغمود ، فتتلهف ، واللهف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت إليه سريعا ، وأقبلت نحوه هرعاً .

واعلم أنك لا تقصد موضعاً إلا تسألوئك ، ولا تأتى بلداً إلا قفوئك ، ولا تلوذ بعاصم لينجيك ، إلا استعنت بالله عليه وعليك ؛ فاجيرك إلا أحد رجلين ، إما لدين أو لدنيا ، فأما الدين فأنت بحكمه مفارق ، لأنك عاق مشاقق ، وأما الدنيا فما أحسبه بقى معك من حطام ما سرقته ، مما حملت نفسك على الاستبداد به ، ما يفى بمكائرتنا ، مع ما وهبه الله ، جل اسمه ، لنا من جليل نعمه التي نستوزعها^(٢) الشكر عليها ، ونرغب إليه في إدامتها .

وما دعاني إلى إرفاقك ، والتسهيل من خناقك ، طول هذه المدة ، إلا أمور : منها استضعاف أمرك واحتقاره ، وقلة الاحتفال به واستصغاره ، ومنها أنا جعلنا تركك على ما اخترته ، عقوبة لك من إياك إلى أقصى البلاد ، مبعداً عن الوطن والأهل ، والراحة والمهاد ، وقد فارقت بلدك ، وحرمت أهلك وولدك ؛ ومنها أنا

(١) ينشق .

(٢) نطلب منه التوفيق .

علمنا يقيناً أن الوحشة دعتك إلى الانحياز حيث انحزت ، فأهلناك ليسكن نفارك
وقلنا إنك تحن إلينا حنين الولد ذى الحسب ، وتثوق إلينا توقان ذى الرحم والنسب
فلم تسمع من واعظ ، ولم تعتد بمحافظ ، وأما الآن ، وقد اضطررنا إلى الانزعاج
نحوك ، لاستعمالك المواربة والمحادعة فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة
بل حقيق باللعنة والإهانة ، فعليك من ولد عاقٍ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين والملائكة
والناس أجمعين ، لا قَبيلَ الله لك صرفاً ولا عدلاً^(١) ، وأحاط بك حيث كنت ،
ولا حاطك حيث توجهت ، وستعلم ، أيها المخالف القاطع رحمه ، العاصي ربه ، أى
جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة أتيت ، فتندم إن كانت لك روية ، وفيك
فضل إنسانية ، وتود أنك لم تكن ولدت ، ولا فى الخلق عرفت ، إلا أن ترجع
راغباً ، وتسرع خاضعاً ، إلى ما قبلنا ، فتقيم الاستغفار لك مقام اللعن ، والرقعة
مقام الغلظة والوهن ، والسلام على من سمع الوعظ فوعاه ، وذكر بالله فاتقاه .
وظفر ابن طولون بابنه العباس وجماعته ، فأهانهم وعذبهم ، وقتل كثيراً منهم
ومنهم ابن حدار الكاتب . وكان غيظه عليه أشد ، وحنقه عليه أعظم ، لأن كتب
العباس إلى أبيه كانت من إنشاء هذا الكاتب .

وإذا قرأت كتاب ابن طولون الذى أرسله إلى ابنه العباس ، وكاتبه ابن
عبدكان ؛ لم تجد أيضاً فرقاً بينه وبين رسائل العراقيين ، فى صورته البليانية ، ذات
الفقرات القصيرة ، والمبارات الموسيقية ؛ المؤتلفة النغم ، والسجع غير المتكلف ،
وفىها خضوع اللفظ للمعنى ، والميل إلى الإسهاب إذا اقتضى المقام إسهاباً ؛ وقد
يسوق الدعاء حشواً واعتراضاً فى أثناء الكتابة ، كما كان الجاحظ يفعل .

ولا غرابة فى تشابه الكتاب ؛ فإن بغداد كانت المثال الذى يحتذى ، والرحلة
بين الأقطار الإسلامية كانت شائعة ، وانتقال الأدب من مصر إلى مصر ، ومن

(١) الصرف : التوبة ، والعدل الفدية .

حاضرة إلى حاضرة ، كان أمراً عاماً . وقل أن تجد كاتباً كالجاحظ وابن العميد مستقل بأسلوب وينفرد بطريقة . وقرأ مقدمة كتاب المكافأة ، تجد دعاء جاحظياً ، قصر صاحبه عن أن يترسل استرسال الجاحظ ، ويتدفق مثله .

ولا ننسى هنا أن نعيد ما قلناه عن أحمد بن يوسف بن الداية ، فإن استقلاله وظهور شخصيته في كتاب المكافأة أمر يستحق الالتفات إليه ، ومن حسن الحظ أن له آثاراً باقية . أما ابن عبدكان فلا يمكن الحكم عليه من عدد قليل من الرسائل ؛ وكذلك ابن جدار ، وابن نصير العبادي ، وأحمد بن أيمن الخ . ولو قدر لنا الاطلاع على رسائلهم وآثارهم الأدبية كاملة أو على كثير منها لاستطعنا أن نعرف خصائصهم الكتابية ، ونميز كاتباً عن كاتب كما ميزهم ابن طولون عندما كانت ترد عليه كتب ابنه العباس وهو نازع عليه ، وأدرك أسلوب كل كاتب ، ورد إليه عباراته . وما دمننا بصدد الكلام عن الصفات الشائعة في الرسائل فنتم القول بيمض عبارات كانوا يبتدئون بها رسائلهم ويختتمونها . فقد روى صبح الأعشى ^(١) أن ابن عبدكان كان يفتتح ما يكتبه عن ابن طولون في الولايات بلفظ : « إن أحق كذا » أو « إن أولى كذا » وما أشبه ذلك . ومن ذلك ابتداءه في نسخة عهد عن ابن طولون بقضاء برقة .

« إن من أحق من آثر الحق وعمل به ، وراقب الله في سر أمره وجهره ، واحترس من الزبغ والزلل في قوله وفعله ، وعمل لمعاده ورجعته ، إلى دار فاقته ، وفقره ومسكنته ، من جمل بين المسلمين حاكماً ، وفي أمورهم ناظراً » .
وكانوا يبتدئون الإخوانيات — مما جرى عليه ابن عبدكان وغيره — بالدعاء وعليه غالب كتاباتهم ، فكانوا يدعون بطول البقاء كقول ابن عبدكان :

(١) ج ١١ ص ٢٩ . وجاء في صبح الأعشى ج ٨ من ص ١٦٠ — ص ١٦٦ كثير من الأمثلة والعبارات التي كانت طابع الرسائل في ذلك الوقت .

« عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وآنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك ، السعداء بحظهم منك » .

وقد يكون الدعاء « بدوام النعمة » أو بـ « جعلت فداك » . وقد يتركون الدعاء بهذين إعظاماً لقدر المكتوب إليه . وتلك مبالغة وتكلف في قلب المعاني كقول ابن عبدكان :

« إن قلت في كتبي « جعلني الله فداك » أكون قد بنحستك حظ إحسانك إلى ، وحق مُفترَصك على ؛ لأن نفسي لا توازي ساعة من يومك ، ولا تساوى طرفة من دهرك ، وإنما يُفدَى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا ، وأعرض من أقطار الأرض » .

وقد يدعون بصلاح الدنيا ، وغبطة الآخرة ، وكبت العدو ، وطيب الحياة ، وكل ما يمكن أن يدعى به ، مع مراعاة المناسبة بين الدعاء والمدعوله ووقت الدعاء . وكانوا يفتتحون كتبهم بقولهم : « كتابي إليك » ، أو « أنا من جملة صنائك » أو شبه ذلك .

وكانوا يجيبون على الرسائل مبتدئين بما يفيد وصولها ، ويعقبون بالثناء عليها وعلى مرسلها ، والدعاء له بمثل ما تقدم ، ومن ذلك كتاب ابن عبدكان :

« وصل كتابك مشتملا من أنواع البر ، على ما يقصر في جنب أيسره أعظم الشكر .

ويختتمون الرسائل بالأدب المتكلف ، والتلطف المبالغ فيه ، مما توجه الحاضرة ويفرضه اختلاف منازل الناس وأقذارهم فيها .

وصار بعضهم مقصد الأدباء . فقد روى أن أحدهم ذهب إلى ابن عبدكان فحجبه فكتب إليه :

إني أتيتك للتسليم أمس ، فلم تأذن عليك لي الأستار والحجب

وقد علمت باني لم أرَد ، ولا والله ما رُدَّ إلا السلم والأدب
فأجابه ابن عبدكان مضمناً بيت أبي تمام في عتاب عبد الله بن طاهر :
لو كنت كافيت بالحسنى لقلت كما قال ابن أوس ، وفيما قاله أدب
« ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب »

وكان ابن عبدكان يعرف أقدار أهل الأدب ويستعين بالفضلاء منهم . وكانت
شهرة دائمة في العراق ، فقصده من هناك أديب صار له ذكر في عهد خمارويه وهو :
اسحق بن نصير الكاتب البغدادي أبو يعقوب .

وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدباء ^(١) فقال :

« كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان »

وجاء ياقوت بخبر اتصاله بابن عبدكان ، نقلا عن ابن زولاق . فقال :

« وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان ، على المكاتبات والرسائل ،
منذ أيام أحمد بن طولون ، إلى أن قدم عليه أبو يعقوب ، اسحق بن نصير البغدادي
من العراق ، والتمس التصرف ؛ فقال له ابن عبدكان : فيما ذا تتصرف ؟ فقال :
في المكاتبات والأجوبة والترسل .

وكان بين يدي أبي جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذ هذه وأجب عنها ،
فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام .
وقام أبو جعفر إلى الحجرة التي له ، فاجتاز به والكتب بين يديه ، فأخذها وقرأها ،
فلما تأملها جعل يروح اسحق بن نصير حتى اتبعه » .

ثم أجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر ، وظل معه إلى أن مات ابن
عبدكان .

ولما انفرد على بن أحمد الماذرائي بالكتابة ألزم اسحق بن نصير منزله . ووردت كتب فأجاب عنها على بن أحمد ، وعرضها على مولاه خمارويه فأنكرها ، فأعاد كتابتها ، فأنكرها خمارويه أيضاً ، فاضطر إلى استدعاء اسحق بن نصير فأجاب عن الكتب ، ودخل « على بن أحمد » على خمارويه فقرأ الأجوبة ، فقال : نعم ، هذا الذي أعرف ! « إيش الخير ؟ » فقال له : كاتب كان مع أبي جعفر فاعتزل ، وأحضرت الساعة . فاستدعاه خمارويه وأمر على بن أحمد أن يجعل رزقه أربعمائة دينار في الشهر .

وقال لإسحق بن نصير : « لا تفارق حضرتي . فبلغ اسحق حتى صار رزقه ألف دينار في كل شهر . فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس » . ولقد أرسل إلى بغداد ثلاثة آلاف دينار دفعة واحدة ، ألف منها لأبي العباس البرد ، ومثلها إلى أبي العباس ثعلب ، والألف الثالثة إلى وراق كان يجلس عنده . وقد توفي اسحق سنة ٢٩٧ .

وترى في أخبار إسحق هذه أن خمارويه كان كأبيه ، يعرف الفرق بين كاتب وكاتب ، وبين أسلوب وأسلوب ، وأنه كان يقدر الأدباء ، ويجزل عطاءهم . وأن الصلة بين كتاب مصر والعراق لم تكن منقطعة .

أما الماذرائي فهو من أسرة ولي بعض رجالها كتابة الطولونيين وتدير أموالهم ومنهم محمد بن علي الماذرائي ، وعمه الحسين بن أحمد . وكان لهم عمل بها بعد الطولونيين أيضاً^(١) .

وكانت ظروف الحرب والسياسية والحوادث التي توالى على البلاد في أيام خمارويه وبعده إلى قيام الفاطميين ، ظروفاً تنهض فيها الكتابة بكثير من الأعباء ، كرسائل الصلح ، وكتب المهود ، وأجوبة الولاء والطاعة ، وصحائف التهديد

(١) الولاة والقضاء ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٥

والتحذير ، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الدولة في صلتها بدار الخلافة ورجالها ، أو تحتاج إليه في صلتها بالدويلات التي كانت تابعة لها أو مجاورة ، كالشام وإفريقية والحجاز .

وكانت مصر قد أنشأت ديوان الرسائل ، واختارت له كتاباً قاموا بأعمالهم فيه على درجة من البلاغة والمهارة والحدق ، لا تقل عما كان في حاضرة الخلافة ؛ ولكن الباقي من آثار أولئك القوم هو أسماؤهم ، وإشارات إلى كتبهم ، لا تغني كثيراً عن تلك الآثار .

وإذا جاز لنا أن نحكم بما بقي ، قلنا إن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يسيرون على طريق النثر الفني في القرن الرابع ، من عناية بالمحسنات البديعة كالسجع والجناس ، والاقتيباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد به ، وحل أبيات الشعر ثم العناية بترتيب المعاني وتنظيم الفقرات ، وكثرة الدعاء والألقاب ، وتمييز الطبقات في الكتب . وزيادة أنواع البدء والختام عما كان متبعاً من قبل . مع التنقل بين الإيجاز والإطناب بحسب الموضوع ، أو جهة الإنشاء الصادرة عنها أو الواردة إليها .

ومن الرسائل الباقية من عهد الإخشيديين رسالة بعث بها الإخشيد ، محمد بن طنج ، صاحب الديار المصرية ، ومأمعها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى أرمانوس ملك الروم ، رداً على كتاب منه إليه ، نستطيع أن نعرف فحواه من كتاب الإخشيد في الرد عليه . ويخيل إليك وأنت تقرأ رد الإخشيد أن الكاتب كان يرد على كتاب أرمانوس فقرة فقرة ، بشئ من التطويل والإسهاب ، وجاء في كتاب أرمانوس فقرة تشير إلى أنه كاتب الإخشيد وهو وال للخليفة ، ولم تكن عادة أن يكاتب إلا الخليفة نفسه .

ومما يدل على غنى ديوان الرسائل بالكتاب أن الإخشيد أمر بالرد على

كتاب أرمانوس، فكتب له الكتاب عدة أجوبة، ورفضوا نسخها إليه؛ فلم يرتض منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله الشَّجِيرِي — وكان عالماً بوجوه الكتابة، وهو كتاب مطول في صفحات، وكثير من عباراته مكرر. وقد بدأه: « من محمد بن طفج، مولى أمير المؤمنين، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه: « سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحقون، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

أما بعد. فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا واسحق رسوليك، فوجدناه مفقوتاً بذكر فضيلة الرحمة، وما نُنمى عنا إليك، وصح من شيمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به هذا القول، من ذكر الفداء، والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه.

فأما ما أظنبت فيه من فضيلة الرحمة؛ فمن سيد القول، الذي يليق بذوى الفضل والنبيل، ونحن — بحمد الله ونعمه علينا — بذلك عارفون، وإليه راغبون وعليه باعثون، وفيه — بتوفيق الله إيانا — مجتهدون، وبه متواصون وعاملون، وإياه نسأل التوفيق لمرشد الأمور، وجوامع المصالح، بمنه وقدرته.

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فإننا نرغب إلى الله جل وعلا، الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها، ويسرنا للاجتهاد فيها، والاعتصام من زيغ الهوى عنها، وعُمرّة القسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به، وأحقّ حقاً بما دعوتنا إليه، ومن يستحق الزلق من الله تعالى، فإننا فقراء إلى رحمته، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسيم الأمر ما حملنا، وجمع له من سعة المالك ما جمع لنا، بمولانا أمير

المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يتنهّل إلى الله تعالى في معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وييده « ومن لم يحمل الله له نوراً فما له من نور » .
وترى في هذه الفقرات التي تقدمت ، سلاماً فيه حذر ، وحمداً لله ، وصلاة على رسوله ، وإجمالاً لخطاب أرمانيوس ، ورداً مفصلاً عليه بعد ذلك ، وترى فيه الاعتراض بين أجزاء الجملة ، وتقسيم الجملة الواحدة إلى أجزاء ، وإطناباً عاماً . ونحس في كثير من الفقرات أن الرسالة قد انتهت ، لأنه كان يختتمها بعبارات تشبه عبارات الختام ، ويتكرر ذلك أكثر من مرة في الرسالة . وآخر ما قاله :

« ومن ابتدأ بجميل لزمه الجري عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقاً به ، وقد ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة ، وأنت حقيق بمهارة ما بيننا ، وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله تعالى » .
« والحمد لله أحق ما ابتدئ به وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليماً » .

والنجيرمي منشىء هذا الكتاب نحوي لغوي ، أخذ عنه أبو الحسين المهلبى ، وجُنَادَةُ اللغوى الهروى ، وكثير من أهل العلم ، وكان مقامه بمصر^(١) . أما نسبه فإلى « نجيرم » وهى قرية كبيرة على ساحل بحر فارس . وكان يقول الشعر أيضاً . وقد امتد به العمر إلى زمن كافور . ورويت له نادرة فى الشعر تدل على حضور بديهته ، وحسن تأويله ولباقته ، وبخاصة فيما اتصل بالنحو الذى كان بعض صناعته . روى ياقوت قال : (٢) .

« حدثنى بعض أهل مصر عند كونى بها فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ... أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدي فقال له : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨

(٢) ج ١ ص ١٩٩

نخفض الأيام ، فتبسم كافور إلى أبي اسحق النجيري . فقال أبو اسحق .
لا غرؤ أن لحنَ الداعي لسيدنا ونغصَّ من هيةٍ بالريق والبهرير
فشلُ سيدنا حالتُ مهابته بين البليغ وبين القول ، بالحصر
فإن يكن خفضَ الأيام عن دَهشٍ من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلتُ في هذا لسيدنا والقالُ نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب وأن دولته صفو بلا كدر

قال : فأمر له بثلاثمائة دينار ، ولابن عباس صاحب الغلط بمثلها .
هكذا أخبرني المصري في خبر هذا الشعر . وأنه لأبي اسحق النجيري .
وهناك رواية أخرى في هذا الشعر وفي قائله ، وإن اتفقت الروايتان على أن
الخطأ والشعر كانا في مجلس كافور .

وقد سمعنا برسائل أرسلها كافور الإخشيدي إلى عامله على دمشق كي يرسل إليه
المتنبى ، فكتب إليه عامله إن المتنبى قال : لم أقصد العبد ، إن دخلت مصر
فما قصدى إلا سيده ^(١) .

وكتب يطلبه من أمير الرملة أيضاً .
ولهذه الرسائل قيمتها في الدلالة على حرص كافور على الأدب وعلى المتنبى خاصة .